

أثر التربية ما قبل مدرسية، على المسار التعليمي للمتعلم

حسنا العباسي¹ / د. حسن بدوح²

ملخص:

تأتي هذه الورقة في سياق الكشف عن جهود الباحث مصطفى بوعناني في اللسانيات المعرفية، ومدى استفادة سلك التعليم الأولي منها، من خلال الانطلاق من إشكالية تقف على جهود هذا الباحث في هذا السلك، وأثرها على المسار الإدراكي للمتعلم، خاصة وأن معظم جهوده تنصب أساسا على العملية التعليمية التعلمية وكل المتدخلين فيها، فالدراسات التي يقدمها مصطفى بوعناني تتغيا بالدرجة الأولى إفادة الممارسات الصفية من النتائج التي وصلت إليها اللسانيات المعرفية. وبما أن سلك التعليم الأولي لبنة أساس في مسار كل متعلم، والقاعدة التي ينبنى عليها التعلم المستمر، والنمو الفكري للطفل. فإن سلك التعليم الأولي بحاجة ماسة إلى استثمار نتائج الأبحاث المعرفية.

إن وعي الباحث مصطفى بوعناني بالدراسات البيئية وانعكاسها الإيجابي في حل مشكلات المجتمع الإنساني، جعله يقوم بإسقاطات علمية معرفية على المشاكل المتعلقة بالتربية، خاصة وأن اللسانيات المعرفية تنشط في مجال اكتساب اللغة وفهمها واستخدامها، بشكل يولي الأهمية للعمليات العقلية والمعرفية، لأن الدراسات الحديثة تؤكد أن الطفل لا يفتقر إلى كفايات منطقية مجردة، ولكن دماغه المبنى منذ الولادة يمنحه بديهيات عميقة، تفرض سياقاً تعليمياً غنياً وخصوصاً بالمتعلم الجديد.

ولعل التجديد الذي طال وثيقة الإطار المنهجي للتعليم الأولي، يعكس وبوضوح الانفتاح على العلوم المعرفية، خاصة علم النفس وعلم الأعصاب؛ لأنهما يركزان على نمو الطفل ومدى معالجة المعلومات، والمصادر المفهومية، والمهارات الإدراكية. فالمنظور المعرفي يرى المتعلم نظاماً نشيطاً لمعالجة المعلومات معالجة دقيقة ومعقدة، هذا التوجه الجديد كان سبباً مباشراً في تركيز واضعي وثيقة الإطار المنهجي على النظريات المعرفية التي تتجاوز المتعلم التقليدي إلى متعلم مستقل يبني تعلماته ويعمل على تطويرها. فكان من أهم مخرجات هذه الورقة البحثية، أن الارتقاء بالعملية التعليمية التعلمية في صفوف متعلمي السلك الأولي يقتضي التعامل مع المتعلم بمنظور معرفي يعترف بقدراته العقلية وينميها، وخلق فضاء تربوي يتناسب والمتعلم الجديد، مع ضرورة وعي مربّي (ة) التعليم الأولي بحساسية المرحلة، إلى جانب تجديد صيغ التنشيط وأساليب التعزيز.

الكلمات المفتاحية: التربية ما قبل مدرسية – اللسانيات المعرفية – المسار الإدراكي – الإطار المنهجي للتعليم الأولي.

¹ طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، مختبر الدراسات الأدبية واللسانية والديداكتيكية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب، hasnaelabbasi@gmail.com

² أستاذ اللسانيات، ومنسق الماستر المتخصص التواصل البيداغوجي وديداكتيك اللغة العربية بالكلية متعددة التخصصات بخريبكة، مختبر الدراسات الأدبية واللسانية والديداكتيكية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب، h.bdouh@usms.ma

The Impact of Pre-School Education on the Educational Pathway of the Learner

El Abbasi Hasnaa / Hassan Bdouh

Abstract :

This paper aims to uncover the efforts of researcher Mostafa Bouanani in cognitive linguistics, and the extent to which the primary education sector benefits from them, by starting from an issue that stands on the efforts of this researcher in this sector, and their impact on the cognitive path of the learner, especially since most of his efforts focus mainly on the teaching-learning process and all those involved in it, as the studies presented by Mostafa Bouanani aim primarily to benefit classroom practices from the results reached by cognitive linguistics. Since primary education is an essential building block in the path of every learner, and the base on which continuous learning and intellectual development of the child is built. The primary education sector needs to capitalise on the results of cognitive research.

Mustapha Bouanani's consciousness of interdisciplinary studies and their positive reflection in solving the issues of human society made him make scientific and cognitive projections on issues related to education, especially since cognitive linguistics is active in the field of language acquisition, understanding and use, in a way that gives importance to mental and cognitive processes, because recent studies confirm that the child does not lack abstract logical competencies, but his brain built from birth gives him deep axioms, which impose a rich and specific educational context for the new learner.

The renewal of the curriculum framework document for primary education clearly reflects the openness to cognitive sciences, especially psychology and neuroscience, because they focus on child development, information processing, conceptual resources, and cognitive skills. The cognitive perspective sees the learner as an active system for processing information in a precise and complex manner. This new approach was a direct reason for the authors of the curriculum framework document to focus on cognitive theories that go beyond the traditional learner to an independent learner who constructs and develops his/her own learning. One of the main outcomes of this research paper is that improving the teaching-learning process among primary learners requires dealing with the learner with a cognitive perspective that recognises and develops his/her mental abilities, creating an educational space suitable for the new learner, the need for primary education educators to be aware of the sensitivity of the stage, as well as renewing activation formulas and reinforcement methods.

Keywords: Pre-school education - Cognitive linguistics - Cognitive trajectory - Curriculum framework for pre-school education.

مقدمة

تراهن المجتمعات المتقدمة على القدرات البشرية للمجتمع بالدرجة الأولى، وذلك من خلال مدخل التربية والتعليم باعتبارهما صناعة الاستثمار وتنمية الأفراد وإكسابهم المواهب، فالتعليم تكلفة حقيقية لكنها رأس مال ثابت، وثروة شخصية ومجتمعية. خاصة وأننا في عالم يتسم بالتطور المستمر للمعرفة والتكنولوجيا، يلعب فيه التعليم الأولي دورا حاسما في تشكيل مستقبل الأجيال الجديدة، فهو الأساس الذي ينبنى عليه التعلم المستمر، والنمو الفكري للطفل، من هنا تبرز أهمية النظريات اللسانية المعرفية لتحسين وتطوير أساليب التعليم بصفة عامة، والتعليم الأولي بصفة خاصة، وجعلها أكثر شمولية.

تعد اللسانيات المعرفية فرعاً من العلوم اللسانية، تهتم بدراسة كيفية اكتساب اللغة وفهمها واستخدامها، وذلك من منظور معرفي يولي الأهمية للعمليات العقلية والمعرفية. وفي هذا السياق تبرز جهود الباحث المغربي مصطفى بوعناني كإحدى العلامات الفارقة في الجمع بين هذين المجالين، إذ يسعى مصطفى بوعناني من خلال أبحاثه أن يفيد الممارسات الصفية من النتائج التي وصلت إليها اللسانيات المعرفية، وذلك بالدعوة إلى تصميم مناهج تعليمية تعزز من قدرات الطفل اللغوية والمعرفية منذ سن مبكرة، وتتعامل مع الطفل والمدرس من وجهة نظر معرفية، تأخذ بعين الاعتبار كيفية معالجة الأطفال للمعلومات، من خلال توفير بيئات تعليمية غنية ومحفزة تساعد على تطوير التفكير النقدي والإبداعي.

الكلمات المفتاحية: التربية ما قبل مدرسية – اللسانيات المعرفية – المسار الإدراكي – الإطار المنهجي للتعليم الأولي.

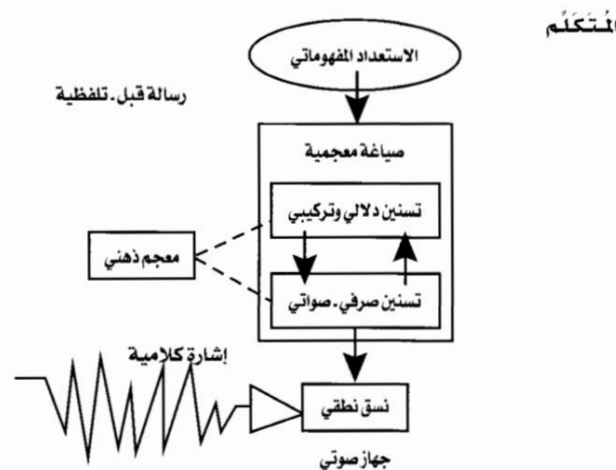
(1) التربية ما قبل مدرسية وسيلة أو غاية؟

(1-1) التربية ما قبل مدرسية بين الماضي والحاضر:

تعتبر مرحلة التربية ما قبل المدرسية مرحلة واسعة قد تشمل العناية بالطفل منذ ولادته، إذا لم نحدد ما نعنيه بها، وقد تعني على أقل تقدير مرحلة دور الحضانه والرياض، فنجد في هذا السياق اجتهادات علمية في تقسيم مراحلها، والبحث في خصائصها ومميزاتها وكذا مشكلاتها، لأن كل فرد "يمر في حياته بمراحل نمائية مختلفة، هي مرحلة الطفولة المبكرة، والطفولة الوسطى، والطفولة المتأخرة، ومرحلة الرشد ثم مرحلة الشيخوخة" (كريماني، د.ت، ص، 09)؛ كل مرحلة من هذه المراحل تستدعي متطلبات وحاجات نمائية خاصة، وتدخلات تربوية معينة. فكان التركيز على مرحلة الطفولة المبكرة نظرا لتأثيرها على طفل اليوم ومتعلم الغد، ومواطن

المستقبل، فنجد أن "مرحلة الطفولة المبكرة من حيث العمر تلك الفترة من سن الثالثة حتى السادسة، وتربويا هي مرحلة رياض الأطفال أو ما قبل المدرسة" (ميلاد، 2015، ص، 34). ومنه فهذا الاهتمام تبرره حساسية المرحلة وتأثيرها على باقي المراحل العمرية اللاحقة، لكونها ترسي دعائم رئيسة يقوم عليها تطور نمو شخصية الطفل؛ لأن نمو الطفل نمو مركب ومعقد يلتقي فيه النمو الجسدي بالنمو المعرفي، بالنمو الاجتماعي وكذا العاطفي، خاصة بعد اجتياح العلوم المعرفية لميدان التربية والتعليم، إذ "أكدت الدراسات المعرفية الحديثة أن الطفل لا يفتقر لكفايات منطقية مجردة، ولكن دماغه، خلاف ذلك مبنين منذ الولادة، وهو ما يمنحه بديهيات عميقة... تفرض على المدرسة أن توفر له سياقاً تعليمياً غنياً تتناوب داخله -كل يوم- لحظات التعلم الصريح، ولحظات مراقبة المعارف، وطرائق بلورة الاستراتيجيات الميطامعرفية، وتعزيز المعرفة الموضوعية، والرغبة في معرفة الأكثر" (بوعناني، زغبوش، علوي، و شاكري، 2015، ص، 04). ما يجعل الطفل في هذه المرحلة العمرية أرضاً خصبة لتلقي المعلومات، فالتربية يمكن تحصيلها عن طريق التواصل، والتواصل في حاجة إلى اللغة. ومن ثم نتساءل: ما طبيعة الإنجاز اللغوي عند الطفل؟

إن الإنجاز اللغوي من المنظور المعرفي عملية في غاية التعقيد، تمر من "سلوك لغوي متمظهر طبيعياً للوصول إلى كيفية انتظام السيرورات الذهنية التي تنتج هذا السلوك اللغوي، وفق طريقة محددة..." (بوعناني، 2004). إنها دراسات حديثة تستهدف أساساً رصد مكان التعقيد في كل إنجاز لغوي. إذ "يجمع الباحثون في مجال السيكلولسانيات على أن الإنجازات اللغوية عبارة عن مسارات معرفية بالغة التعقيد. تتحدد خطوات تحققها عبر ثلاث مراحل أساسية على الأقل، لخصها بوعناني في الرسم الآتي:



نموذج عام للإنجاز اللغوي (بوعناني، التسنين الفونولوجي والمسارات المعرفية للإنجاز اللغوي العربي، 2004، ص، 44).

- "مرحلة الصياغة المفهومية conceptualisation : وهي مرحلة تقوم على بناء تصور مفهوماتي للشيء الذي نريد التعبير عنه؛

- أما مرحلة الصياغة المعجمية lexicalisation: ففيها يتم ربط التصورات المفهوماتية، والأفكار المجردة بما يناسبها من بنيات معجمية؛

- في حين أن مرحلة النطق l'articulation: هي المرحلة النهائية التي تقود إلى النطق بالرسالة التي يود المتكلم إيصالها للمتلقي باعتماد الجهاز المصوت" (بوعناني، 2004، ص، 43).

إن التعليم الأولي كممارسة ليس بجديد على المنظومة التربوية التعليمية المغربية، وإنما هو حاضر منذ القدم في شكل كتاب (جمعه ككتيب). والكتاب القرآني هو "مؤسسة تعليمية أصيلة غالبا ما كانت تتكون من حجرة واحدة، يتم فيها تحفيظ الأطفال ما استطاعوا من القرآن الكريم، ويكون هذا دافعا لتعليمهم القراءة والكتابة، وقد يتلقون دروسا في التربية الدينية وفي الحساب وبعض النصوص الشعرية ذات المقاطع القصيرة الموزونة" (الهلاي، ربحان، 1994/1990، ص، 11). فالبداية كانت مع الكتاتيب القرآنية إبان الفتح الإسلامي للمغرب، والغاية الأولى كانت تشرب الأطفال بالأخلاق الحميدة المنبثقة من تعاليم الدين الإسلامي، لكننا اليوم أصبحنا نتحدث عن ممارسة تربوية مقننة داخل أقسام التعليم الأولي، بمنظور معرفي جديد. يولي أهمية بالغة لدراسة المسارات المعرفية عند الطفل إنجازا وإدراكا. لي طرح السؤال: كيف كانت تمر العملية التعليمية في أقسام التعليم الأولي، قبل اللسانيات المعرفية؟ وما مدى وعي المربي (ة) بأثر هذه المرحلة على المسار الإدراكي للطفل؟

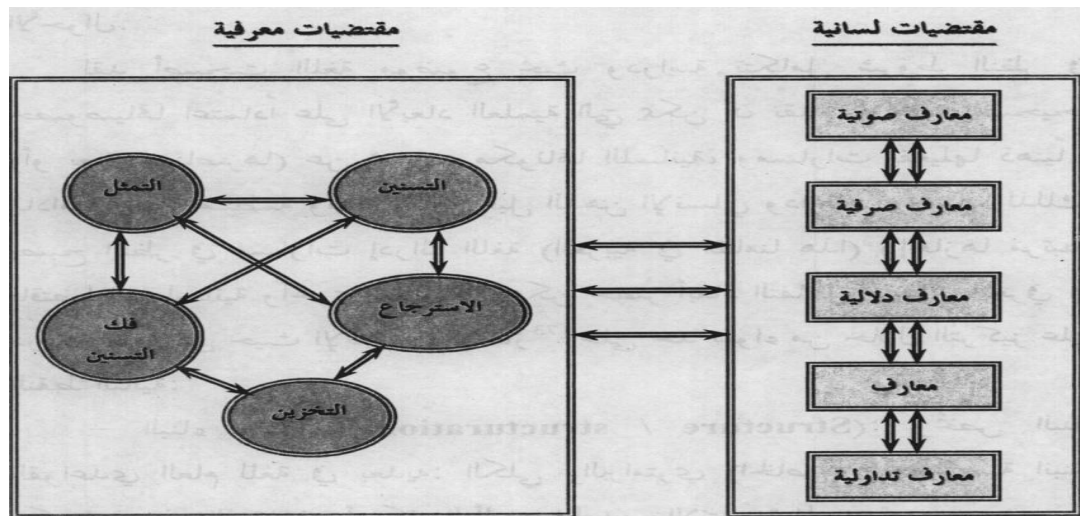
(1-2) التعليم الأولي بين الضرورة والحاجة:

جاء في معجم مصطلحات ومفاهيم التعليم والتعلم تعريف للتعليم الأولي على أنه "مرحلة تعليم غير نظامية، تهدف إلى تهيئة الأطفال وإعدادهم للتعليم النظامي (.....)، وتتضمن الأطفال ما بين الأربع والست سنوات، (.....) هي كذلك مؤسسات تربوية اجتماعية تسهم في تربية الطفل الذي يتراوح عمره ما بين الثلاث والست سنوات، وتهدف إلى تحقيق النمو المتكامل للطفل من جميع الجوانب الجسمية والعقلية والسلوكية، بالإضافة إلى تنمية قدراته عن طريق البرامج والأنشطة، والأساليب المناسبة لاحتياجات هذه المرحلة العمرية" (عزيز مجدي، 2009، ص، 410).

قانونيا وبالعودة إلى الوثائق المغربية الرسمية، سنجد القانون 00.05 بشأن النظام الأساسي يعرف التعليم الأولي بأنه " المرحلة التربوية التي تتكفل بها المؤسسات التي يقبل فيها الأطفال المتراوحة أعمارهم ما بين أربع سنوات

كاملة وست سنوات" (الجريدة الرسمية، 2000). إلا أن هذه المرحلة غير إجبارية لكونها لا تدخل ضمن التعليم الأساسي الإلزامي كما جاء في القانون 00.04 الذي يهتم الأطفال المغاربة، " الفصل الأول : التعليم الأساسي حق وواجب لجميع الأطفال المغاربة ذكورا وإناثا". (الجريدة الرسمية، 2000، ص، 1183).

إن الانتقال بالممارسة التربوية في التربية ما قبل مدرسية من الممارسة العشوائية إلى ممارسة مقننة وواضحة المعالم، أصبح ضرورة فرضها التطور العلمي والمعرفي الذي عرفته العقود الأخيرة من القرن العشرين، إلى جانب التقارير المقدمة في هذا السياق، وكذا الحركية التطورية بالمغرب، والتي تسعى إلى جعل التعليم الأولي نظاما تربويا رسميا قائما بذاته له مرجعيات وغايات تعزز مكانته وتوحد غايته، إذ يعد التعليم الأولي استثمارا تربويا واجتماعيا، واقتصاديا في أجيال المستقبل، ومرحلة مؤسسة لمسار نمو مركب للطفل، خاصة مع التوجه المعرفي الذي يرى أن التعلم نشاط ذهني يتأسس على مسارات معرفية من قبيل الفهم، والإدراك...، "إذ يمكن حصر أبعاد التفاعل اللساني المعرفي في دراسة اللغة من حيث الإدراك والإنجاز (...)، من خلال بسط المقتضبات اللسانية والمعرفية في عمليات الإنجاز والإدراك اللغوي، وأشكال التفاعل بينها حسب الباحث بوعناني من خلال الرسم التالي:



(بوعناني، اللسانيات المعرفية: بعض المظاهر الذهنية لمسارات اشتغال العربية، 2007)

"إن عملية معالجة اللغة من زاويتي الإنجاز والإدراك، عملية جد معقدة تحدث نتيجة عمل متكامل للجهاز العصبي، حيث تتفاعل مجموعة كبيرة من المواضيع المخية والخلايا العصبية الحسية منها والحركية..." (بوعناني، 2007، ص، 277).

فإلى أي حد استطاعت وثيقة الإطار المنهاجي الاستفادة من المعطيات اللسانية المعرفية لتنظيم الممارسات داخل أقسام التعليم الأولي؟ وهل استحضرت التعقيدات التي تصاحب عمليتي الإنجاز والإدراك في التعامل مع الطفل؟

(2) النموذج البيداغوجي الموحد رؤية معرفية

(2-1) الإطار المنهاجي للتعليم الأولي مقارنة بيداغوجية جديدة

ضمن سلسلة الإصلاحات التي تعرفها الساحة التربوية، حظي التعليم الأولي بالعناية الكاملة بعده سلكا مؤسسا للسلك الابتدائي، فكانت الحاجة إلى وثيقة تربوية تقيد الممارسات وتختار المعرفة، وبذلك فالإطار المنهاجي للتعليم الأولي هو: وثيقة تربوية تمت المصادقة عليها في يوليوز سنة 2018، قصد توحيد الفعل التربوي، وضمان مبدأ المساواة، وتكافؤ الفرص بين أطفال المملكة المغربية، في الحاضرة وفي البادية، "فهو عمل تشاركي جمع باحثين وفرقا جهوية أكثر التصاقا بالميدان من مؤطرين وممارسين وأسر وأطفال معينين" (مديرية المناهج، 2018).

إن أهم ما جاء به المنهاج هو تجديد المفاهيم وليس استبدالها، إنه تجديد يواكب التطور والانفتاح المعرفيين للمواد التي يتلقاها الطفل. إنها تسميات ترتبط أكثر بجوانب شخصية الطفل (نموه الجسدي، ونموه العقلي، واندماؤه الاجتماعي...) من جهة، وبالكفايات التربوية الأساسية المنتظر تحقيقها من جهة ثانية، إذ نرصد وبوضوح "تغيير تعريف التعلم من توجه عد بموجبه، ولمدة طويلة، تعديلا وتغييرا في السلوك إلى توجه يجعل منه عملية تفكيرية يمارسها المتعلم بإزاء حدث، ومعلومة، وموقف..." (بوعناني، وآخرون، 2021، ص، 29).

لقد عملت هذه الوثيقة على إبراز خصوصية التعليم الأولي وجعله سلكا تربويا يتميز عن باقي الأسلاك، بكونه المرحلة التي يوضع فيها الحجر الأساس والمعالم الكبرى لشخصية رجل وامرأة الغد، كما شددت على ضرورة الإلمام بخصائص المرحلة النمائية للأطفال واحترامها، و"ضرورة امتلاك المدرس حدا أدنى من المعارف المرتبطة بالعلوم المعرفية" (بوعناني، وآخرون، 2015، ص، 04).

وتم الأخذ بعين الاعتبار هذه المرحلة التعليمية في كل هندسة تربوية أو تعامل تربوي؛ فالانفتاح المعرفي منح أهمية خاصة لدراسة علم الأعصاب، وعلم النفس، لأنه يركز على نمو الطفل في مدى معالجة المعلومات والمصادر المفهومية والمهارات الإدراكية، فالنمو المعرفي هو ظهور القدرة على التفكير والفهم.

إن المسار المتدرج لمكونات الإطار المنهاجي يعكس الوعي الكامل بأهمية مرحلة التعليم الأولي، "آخذاً بعين الاعتبار النتائج التي تقدمها العلوم المعرفية ارتباطاً بالفعل التعليمي التعليمي" (بوعناني، وآخرون 2015، ص، 04)، وذلك بالنظر إلى طبيعة المرحلة النمائية وخصوصياتها، كما تقرها النظريات السيكلوجية والأبحاث الحديثة، فكان من أهم المواصفات التي يجب أن يتصف بها الطفل عند إنهائه لهذه المرحلة على المستوى العقلي والمعرفي، إنجازة "لعمليات ذهنية أولية" (مديرية المناهج، 2018، ص، 10)، ومن ثم "فالتغيرات التي حدثت لدى المتعلم، بموجب ذلك كله، تغيرات مست الأبنية المعرفية ومستوياتها واستراتيجياتها، كما مست المعالجات التي يعتمد عليها المتعلم، وطبيعة التعديلات والتغيرات والتنظيمات المعتمدة موافقة لأسلوب تعلمه" (بوعناني، وآخرون، 2021، ص، 29). فكان لزاماً صياغة كفايات تربوية أساسية من بينها، "كفاية مرتبطة ببناء أسس العمليات الذهنية وتنظيم التفكير" (مديرية المناهج، 2018، ص، 10)، حرصاً من واضعي وثيقة الإطار المنهاجي للتعليم الأولي على خلق مجالات للتعلم تضم أنشطة وممارسات تخدم الكفايات في تكاملها وانسجامها، وتسعى إلى بناء هوية بيداغوجية خاصة بالتعليم الأولي وبمتعلميه. فكان مجال تنظيم التفكير مجالاً تعليمياً أساساً، ينمي فيه الطفل آليات ذهنية تمكنه من الإدراك الصحيح للأشياء المحيطة به، وفهمها ومقارنتها وتنظيمها والتفاعل معها.

2-2) أثر التربية ما قبل مدرسية على المسار الإدراكي للطفل

أولى (جان بياجي) اهتماماً بالغاً لدراسة النمو العقلي عند الطفل، واهتم بالأساس بالتطور المعرفي بالدرجة الأولى، إذ إنه حين درس اللغة، كان هدفه الكشف عن سمات التفكير في مراحل المتعاقب، حيث قام (جان بياجي) بدراسة مراحل النمو الذهني لدى الطفل وذلك بتحديد الفترة التي يبدأ فيها وينتهي، "إذ يبدأ النمو العقلي عند الولادة، وينتهي في سن الرشد. ويمكن مقارنته بالنمو العضوي، لأنه يتمثل أساساً في السير نحو التوازن، فكما أن الجسم يتطور إلى أن يصل إلى مستوى قار نسبياً يتميز باكتمال النمو ونضج الأعضاء، كذلك يمكننا اعتبار الحياة النفسية على أنها تطور نحو شكل من التوازن النهائي الذي يمثله ذهن الإنسان، فالنمو إذن، هو بمعنى ما إقامة توازن تدريجي، وانتقال دائم من حالة توازن دنيا إلى حالة توازن عليا" (بياجي، 1993).

رغم الربط الذي أنشأه (بياجي) بين النمو العضوي والعقلي. فإنه يؤكد على الاختلاف الجوهرى بين حياة الجسم وحياة العقل، فهذه الأفكار والمعتقدات، جعلت (بياجي) يخضع اللغة للتفكير، ولم يتصور إمكانية النمو اللغوي بصورة مستقلة على التطور المعرفي، فحسب بياجي الوظائف المعرفية تسبق التطور اللغوي. لقد قضى (جان بياجي) أكثر من نصف قرن في دراسة التطور العقلي لدى الطفل، حيث تمكن من تقسيم هذه المراحل لديهم إلى مراحل تمتد من الولادة إلى الرشد، وتمتاز كل مرحلة منها باستخدام الأطفال طرق تفكير مختلفة وخاصة بها.

"لأن كل مرحلة من هذه المراحل تتميز بظهور بنيات أصلية، كما أن إقامة هذه البنيات هو ما يميز كل مرحلة عن المراحل الأخرى السابقة. إن الأساس الذي تقوم عليه هذه البناءات المتتالية يكون موجودا خلال المراحل السابقة على شكل بنيات تحتية جنينية أو أولية تقام عليها فيما بعد الخاصيات الجديدة" (بياجي، 1993، ص، 14).

تعتبر المرحلة الحس-حركية والتي حددها من الولادة إلى سنتين، المرحلة الأولى في حياة كل طفل نظرا لأهميتها وحساسيتها، فهي مرحلة "تهم الرضيع أو الوليد، وهي تمتد من ولادته إلى حدود اكتساب اللغة، وتتميز هذه المرحلة بنمو ذهني هائل، إلا أنه لا يتم إدراك أهمية هذا النمو، نظرا لأنه غير مرفوق بالكلام الذي يسمح بتتبع تقدم الذكاء والمشاعر خطوة خطوة، كما سيكون الحال فيما بعد (بياجي، 1993، ص، 17).

أما المرحلة الثانية "فتسمى بمرحلة الطفولة الصغرى أو مرحلة ما قبل العمليات، وتتحدد من سنتين إلى سبع سنوات، حيث تعرف السلوكيات تغيرا عميقا على المستويين الوجداني والذهني مع بداية اللغة" (بياجي، 1993، ص، 26). إنها مرحلة تتحدد فيها الملامح الكبرى في شخصية الطفل، وتشكل فيها الأسس الأولى للنمو العقلي والنفسي، والاجتماعي، وكل التغيرات والتطورات التي تلمس جوانب حياته، تؤثر بشكل مباشر على مساره الإدراكي.

إن انتقال الطفل من المرحلة الحسية الحركية إلى مرحلة التفكير التصوري، يحتم عليه تطوير طرق تجريدية للتفكير، ويشمل ذلك تطوير المهارات اللغوية، واستخدام الكلمات لتمثيل ما عاش من أحداث، وفي هذه المرحلة، يصبح الطفل قادرا على الترميز باعتباره ميزة أساسية بين المرحلتين، حيث يبدأ الطفل باستخدام الكائنات كرموز، وإسقاط خصائص كائن على آخر، فالتطور اللغوي والاجتماعي، والعاطفي، والحس حركي رهين بتحقيق تطور عقلي معرفي، فبناء الأساس المعرفي عند الطفل يعني قدرته على استيعاب المعلومات الجديدة بشكل سريع وفعال، مع تكوين مفاهيم أساسية عن العالم الخارجي والبيئة المحيطة وتطويرها، مثل الألوان والأرقام والحروف...

إلا أن الباحث (بوعناني) يؤكد أن تتبعه "للمسار التطوري للتعليم لا يقتصر على المقاربة البياجوية نسبة إلى بياجيه، في تبرير أولويات دراسة البعد التطوري لتحصيل المعارف وفق مظهرها الإجرائي والتصوري، بل يتعداه إلى عمق ما يتحقق في مظهر معالجة المعلومات، والانتقال بها إلى معارف، وتعزيز مدارج الربط بين المعرفة والمعرفية، وبين الوعي والميطا-وعي تدرجا في مراحل التعلم أولا، وانتظاما في وثيرة تعزيز تقنيات التعليم وأبعاده التعليمية ثانيا" (بوعناني، وآخرون، 2021، ص، 26-27)

(3) جهود مصطفى بوعناني في مجال التربية ما قبل المدرسية

(1-3) الخلفية المعرفية لمشروع مصطفى بوعناني

يعد الباحث مصطفى بوعناني أستاذ التعليم العالي مؤهل بجامعة سيدي محمد بن عبد الله: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز، بفاس. وأستاذ التعليم العالي مساعد بجامعة ابن زهر، وكذلك أستاذ مشارك بجامعة قطر: كلية الآداب والعلوم، قسم اللغة العربية، الدوحة - قطر منذ شتنبر 2017م. خبير في مجال التربية والتعلم وديداكتيك اللغات، وكذلك رئيس فريق البحث في اللسانيات والعلوم المعرفية بقسم اللغة العربية بجامعة قطر.

إن التطور العلمي والمعرفي الذي عرفته العقود الأخيرة من القرن العشرين فرض توجيه البحث في مسائل اللغة إلى القضايا المتعلقة بالذهن، باعتماد مقاربة معرفية إدراكية، حيث تم القيام بالعديد من الدراسات والأبحاث في مجال السيكلولسانيات واللسانيات المعرفية حول المعجم الذهني، مع إبراز تقاطع ما هو لساني مع ما هو سيكولوجي، فالمادة اللسانية تشكل المضمون، أما الجانب السيكولوجي فهو الموجه لمسارات وسيرورات الفهم في الذهن. إنه توجه جديد تبناه العديد من الباحثين من بينهم مصطفى بوعناني والذي يسعى من خلاله إلى فهم وتفسير بناء المعنى وتبلوره في الذهن وفق سياقات تواصلية مختلفة.

لم يتوقف الباحث (بوعناني) عند التنظير للرؤية المعرفية للغة، بل عمل على إفادة الحقل التعليمي منها، من خلال مجموعة من المقالات التي أثير فيها النقاش حول مساهمة العلوم المعرفية في تطوير أساليب التربية وأنماطها. تبنى فيها رؤية معرفية تستمد مشروعيتها من النتائج الماهرة التي تمدنا بها اللسانيات والتربية والسيكولوجيا والتعليمية والنورولوجيا...، وفي هذا الصدد يعتبر بوعناني أن العمليات التعليمية التعليمية "تتأسس على وظيفتين أساسيتين: تدبير المحتوى التعليمي، وتدبير فضاء التعلم (الصف). وعلى أساس هذا التمييز، تتوزع مهام المدرس بين العمق التعليمي في علاقة بالمحتوى التعليمي: بناء وإعداد؛ والعمق الإجرائي، ارتباطا بتدبير التفاعلات والعلاقات داخل كتلة المتعلمين على اختلاف مستوياتهم واستعداداتهم للتعلم" (بوعناني، وآخرون، 2021، ص، 19)

إن الوعي بأهمية العمق العلمي والعصبي لطريقة اشتغال اللغة في الدماغ واشتغال الدماغ باللغة، مكن من خلق مسالك بحثية جديدة ودقيقة لفهم طبيعة معالجة المعارف -بصفة عامة- ذهنيا، إلى درجة تحقيق الربط بين مظاهر التعلم المعرفي ومقتضيات اشتغال الخلايا العصبية لعمليات التعلم المختلفة.

استطاع (مصطفى بوعناني) بتوجيهه المعرفي أن يتناول مواضيع مختلفة في الظاهر لكنها مرتبطة في العمق، من خلال إمكانية "التقاطع بين النورولوجيا (علم الأعصاب) والتربية، إذ أدى إلى ظهور مجال النوروتربية الذي يهتم بدراسة بعض القضايا التعليمية على مستوى التحليل الذي كان من الصعب الوصول إليه في السابق: ألا وهو المستوى العصبي" (بوعناني)

هذا التوجه فرض على (مصطفى بوعناني) البحث في توظيف النتائج العلمية التي أفرزها التكامل المعرفي بين العلوم، وعدم اعتبار النوروتربية والنوروتعليمية وصفات جاهزة للتطبيق، وإنما هي مزيج من علوم توفر نتائج وبيانات علمية غاية في الدقة.

(3-2) العملية التعليمية: رؤية معرفية جديدة

لقد آمن الباحث (مصطفى بوعناني) بأن التفاعل بين مجالات التعلم والتربية واللسانيات يؤدي إلى تطوير العملية التعليمية التعليمية، من خلال التعامل مع المتعلم بمنظور معرفي جديد، فهو "بالنسبة للمعرفين نظام نشيط لمعالجة المعلومات، وهو أشبه في ذلك بالحاسوب: يستقبل المعلومات التي يلتقطها من العالم الخارجي، يتعرف عليها، ويخزنها في الذاكرة، ثم يسترجعها من ذاكرته عند الحاجة لفهم البيئة وحل المشكلات" (بوعناني و اللحياني 2022، ص، 227). وبخاصة مع إمكانية صناعة الذكاء لدى المعرفين، ولعل هذا الطرح كان سببا مباشرا، قاد واضعوا وثيقة الإطار المنهجي والمسؤولين على قطاع التربية والتعليم بالمغرب التركيز على نظريات معرفية تتجاوز المتعلم التقليدي إلى متعلم مستقل يبني تعلماته ويعمل على تطويرها، على اعتبار أن اللسانيات المعرفية تدرس المسارات عوض البنيات، وتتبع طرق المعالجة للمعلومات اللسانية. في هذا السياق يرى (بوعناني) أنه "إذا كان تدبير المحتوى التعليمي، يرتبط بتخطيط التعليمات واختيار المقاربة الأنسب لذلك، فإن أجرأته تتطلب وعيا دقيقا بطبيعة المقاربة المعتمدة متضمنة للعديد من الأنشطة التعليمية" (بوعناني، 2021، ص، 20) وهو ما جعل بوعناني يضع طرقا مبتكرة لتصريف الأنشطة التعليمية، وهي:

- طريقة تقديم المحتويات التعليمية تدرجا وانتظاما؛
- صيغ التنشيط وأساليب التعزيز؛
- طرائق تنظيم الأنشطة (جماعية، مجموعات، فردية...) الكفيلة بجعل المتعلم ينخرط في التعلم (التحفيز الداخلي من خلال الوضعيات الاستكشافية...);
- طريقة طرح الأسئلة (دقة المقصد من السؤال، الوضوح، ارتباطه بالمستوى المعرفي للمتعلم، حافزته...);

- التقويم والتحقق من فهم المحتوى التعليمي (تقويم متعدد الأبعاد) (بوعناني، 2021، ص، 20).
ولعل وثيقة الإطار المنهجي للتعليم الأولي لم تغفل مسألة تنظيم فضاء الفصل وزمن التعلم، من خلال مصفوفات تضم كل واحدة مجال التعلم وزمن تصريفه، ضمانا لمبدأ التدرج والتنظيم.
أما طرائق العمل والتنشيط التي اعتمدت في هذه الوثيقة، فكانت "مبنية على أساس اللعب والعمل اليدوي المبني على الملاحظة وتركيز الانتباه" (مديرية المناهج، 2018، ص، 61). وعلى هذا الأساس، سيكون العمل مع الطفل ملزوما بشروط أساسية هي:

- اعتماد اللعب كقاعدة أساسية للاشتغال؛
 - إنجاز المطلوب من لدن جميع الأطفال؛
 - تهيئة جميع وسائل العمل؛
 - تتبع أعمال الأطفال وتوجيهها" (مديرية المناهج، 2018، ص، 61).
- إن اهتمام الباحث (مصطفى بوعناني) بالشأن التربوي وإغناء الممارسة التربوية عموما، وبالعلوم المعرفية خصوصا جعله ينطلق من إشكالية مهمة وهي: "هل ستعمل العلوم المعرفية على تغيير المدرسة؟ وهل بإمكانها تغيير طرائق واستراتيجيات علمية معرفية تساعد على التعلم بشكل أفضل؟" (بوعناني، وآخرون 2015، ص، 04)، وغايته كانت المساهمة في تجديد تربوي ينخرط بشكل فعال في آخر مستجدات التربية المعرفية. لي طرح السؤال الجوهرى لهذه الورقة: هل التربية ما قبل مدرسية (التعليم الأولي) تؤثر على المسار الإدراكي للمتعلم؟
- لقد أسهمت أبحاث (مصطفى بوعناني) ذات الخلفية المعرفية في إبراز أهمية التربية المعرفية وانعكاسها على المستوى البيداغوجي، "حيث حملت الأبحاث العصبية المعرفية، في الثلاثين سنة الأخيرة، المهتمين بالمجال التربوي على الاقتناع، بأن فهم وظائف الدماغ وتأثره بالمجال والمحيط بإمكانه أن يقودهم إلى مسالك بحث جديدة قادرة على تطوير المناهج التربوية ومجالات تحقيقها في سياقات تعليمية مختلفة" (بوعناني، 2021، ص، 17).

كما يعتبر مفهوم التربية المعرفية حسب الباحث (مصطفى بوعناني) "أهم محاولة للتجديد البيداغوجي في السنوات الأخيرة، حيث تتمظهر مستويات البحث الصريح عن مجالات جديدة لتطوير الوظيفة الذهنية للأفراد وتنمية قدرات التعلم عندهم" (بوعناني و زغبوش، 2015، ص، 11). هذه الرؤية التبصيرية للباحثين المعرفيين

قادتهم إلى ضرورة "بناء مشروع تربوي معاصر يأخذ بعين الاعتبار الأبعاد النفسية، والاجتماعية، والمعرفية، والوجدانية، والابداعية للمتعلم" (بوعناني و زغبوش ، 2015، ص، 11). فالتوجه المعرفي يستلزم مدرسة معرفية بجميع مكوناتها من متعلم ومدرس، ومضامين التعلم، والمناهج، "فإذا كان التعلم التقليدي يهدف إلى تطوير ذكاء الأطفال من خلال التعليمات المدرسية، فإن التربية المعرفية تطمح إلى تشكيل الذكاء وتطويره لتسهيل تعلم مختلف ميادين المعرفة، وتحقيق الحد الأدنى لاستقلالية المتعلم في تعلماته، ارتباطا بضرورة الاقتناع بأهم ثوابت التربية المعرفية المتمثلة في كون الذكاء قابلا للتعلم" (بوعناني و زغبوش، 2015، ص، 12-13).

خاتمة

إن التكامل المعرفي بين اللسانيات المعرفية والتربية والتعليم، بإمكانه أن يحدث ثورة في أساليب التدريس ويعزز من فعالية التعليم في السنوات الأولى من حياة الطفل، من خلال فهم العمليات العقلية والمعرفية المركبة التي يمر بها الطفل أثناء الاكتساب والتعلم، عن طريق تصميم مناهج تعليمية تستجيب بشكل أفضل لاحتياجاتهم وتدعم تطورهم الشامل. وجهود (مصطفى بوعناني) مثال بارز لباحث، يسعى إلى تطبيق مخرجات الدراسات المعرفية في البيئة التعليمية، من خلال تطوير المناهج التعليمية، واعتماد استراتيجيات تربوية مبتكرة، تتماشى والمبادئ المعرفية.

إن التعامل مع الطفل من وجهة نظر معرفية هو اعتراف بقدراته الفطرية على التعلم، ما يستدعي توفير الأدوات والأساليب والبيئات التي تحفز الطفل وتدعم نموه المعرفي، فمن خلال الجهود المشتركة يمكن تحقيق نتائج إيجابية وملموسة في التعليم والتعلم، مما سيسهم في إعداد جيل من الأطفال القادرين على التفكير النقدي والإبداعي.

لائحة المراجع العربية:

- جان بياجي. (1993). التربية والنمو الذهني لدى الطفل دراسات في علم النفس التكويني. (بلكوش الحبيب، المترجمون) القسم الثقافي للسفارة الفرنسية.
 - عزيز مجدي إبراهيم. (2009). معجم مصطلحات ومفاهيم التعليم والتعلم. عالم الكتب.
 - كريمان، م. (s.d.). مشكلات طفل الروضة وأساليب معالجتها. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
 - محمود محمد ميلاد. (2015). علم نفس نمو الطفل المعرفي. دمشق: دار الإعصار العلمي.
 - مصطفى بوعناني. (06, 2004). التسنين الفونولوجي والمسارات المعرفية للإنجاز اللغوي العربي. مجلة الطفولة العربية، صفحة 43.
 - مصطفى بوعناني. (11, 2007). اللسانيات المعرفية: بعض المظاهر الذهنية لمسارات اشتغال العربية. دار المنظومة، صفحة 276.
 - مصطفى بوعناني، بنعيسى زغبوش، اسماعيل علوي، ورشيد شاكري. (2015). التربية المعرفية والاستراتيجيات التعليمية من رصد كفايات التعليم معرفيا إلى أجرائها ديداكتيكية (الإصدار 01). فاس: مطبعة دار النشر المغربية. تاريخ الاسترداد 06 07 2024
 - مصطفى بوعناني، وامحمد اللحياني. (2022). تأثير المورفولوجيا في الإملاء العربي لدى تلامذة التعليم الابتدائي. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية الصادرة عن أكاديمية المملكة المغربية، صفحة 277.
 - مصطفى بوعناني، وبنعيسى زغبوش. (2015). مقدمة في المعرفية والتربية والثقافة. أبحاث معرفية (6)، صفحة 11.
 - الهلالي، مصطفى؛ مصطفى، ربحان. (1994/1990). مشروعات تربوية لمرحلة ما قبل التمدرس بحث تخطيط بناء تنفيذ. 11. المملكة المغربية.
 - مصطفى بوعناني، يوسف ألاء الكحلوت، سلوى رشدي عزام، خديجة محمد الحسن، و علي الإدريسي. (2021). في اللسانيات التعليمية دراسات ميدانية في تعليم اللغة العربية وتعلمها. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- وثائق تربوية:**
- الجريدة الرسمية. (25 05 2000). 1184.
 - مديرية المناهج. (2018). الإطار المنهجي للتعليم الأولي. الرباط.
- مواقع إلكترونية:**
- بوعناني، م. (s.d.). أضواء على النوروتربية وتعليمية اللغات. الفكر العربي. Consulté le 07 16, 2024, sur <https://arabthought.org/ar/researchcenter/ofoelectronic-article-details>
- مراجع أجنبية:**
- Global Education et Formation. (2014). Rabat. Consulté le 04 27, 2023, sur <https://www.men.gov.ma/Fr/Documents/DIAGN>